فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسمائة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هذه السنة ملك الافرنج مدينة صيدا من ساحل الشام في ربيع الآخر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبب ذلك انه وصل في البحر الى الشام ستون مركبا للافرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج الى بيت المقدس، ويغزو بزعمه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام، فرحلا من القدس، ونزلا على مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر، فحاصروها وضايقوها برا وبحرا، وكان الاسطول المصري مقيما على صور، فلم يقدروا على انجادهم، فعمل الفرنج برجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مامنع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ماأصاب أهل بيروت وغيرها، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الافرنج وطلبوا الامان، فامنهم ملكهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذين عندهم، ومن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لايمنعونه، وحلف لهم على ذلك، وخرج الوالي وجماعة كبيرة من أعيان البلد في العشرين من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدهم.

وفي هذه السنة أيضا سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع إليه من الافرنج إلى الأثارب، وهو بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكوها بالسيف، وقتلوا من أهلها ألفي رجل، وأسروا الباقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوهما وقد أخلاهما أهلهما، فعادوا عنهما، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيبرس: لما جرى ماذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الاسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الافرنج الا على قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو الى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة، وأرسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورقعه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الامراء بالمسير الى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعود مع الامير مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الامراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الافرنج. منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر لقتال الافرنج، منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر، والأمير ألبي والأمير زنكي ابنا برسق، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، فاجتمعوا في حران، وكتب اليهم ابن منقذ صاحب شيزر وعرفهم ان طنكريد صاحب انطاكية قد نزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيزر، ويريد ان يبنيه حصناً، فقطعوا الفرات ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان، فوصل وهو مريض واختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنج، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة يبعثها إليهم، فلم يلتفت وأغلق أبواب حلب، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، واستعد للقتال، وقد كانوا لما قطعوا الفرات كاتبوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك، فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وسار في جمع كثيف طلبا للجهاد، فوصل إليهم على حلب، فسروا بوصوله، وقويت

نفوسهم، فلم يرمنهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومات في طريقه قبل وصوله في الطريق الى الفرات، وأما البرسقي فكان به نقرس فحمل في محفة ولاقول له ولافعل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقال طغتكين لأتابك: ارحلوا الى المعرة، فرحلوا على كره، فقال: انزلوا على طرابلس، فتوقفوا ثم تسللوا وتفرقوا تفرق أيدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الدين مودود، وكان مصافيا لأتابك طغتكين مصافاة صدق، فنزلا على العاصي، وكان الأفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما، وحمل إليهما، وجاء الافرنج فنزلوا على تل معشر مقابل شيزر ليبنوا عليه حصنا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفوهم، ومنعوا احدا منهم ان يخرج من خيمته، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم ناقصة انكفأوا راجعين الى انطاكية وطرابلس والترك في آثارهم قتلا وأسرا، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهم من الفرات في سنة خمس وخمسمائة، وقال: لما اجتمعوا ساروا الى بلد شبختان ففتحوا عدة حصون من بلاد الافرنج وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرها مدة، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وسبب ذلك ان الافرنج اجتمع فارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرها من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يتقدموا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلوا الى حران ليعبر الافرنج الفرات، فلما عبروا ووصلوا إلى الرها ومعهم الميرة والذخائر، فجعلوا فيها كل مايحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقاتلوا فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ماكان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرضهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيقوا على الافرنج الميرة ولزوهم بالقتال، والأفرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أفامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الـذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرمـاهم بجرار مملـوءة من العذرة كـان أعدها لهم، فلما سقطـت عليهم اشتغلوا بهانـالهم من بين الروائح، فتمكنت النـار منه، فهلك كل مـن به الا القليل، وأخذ المسلمون منـه ماقدروا عليه بالكلاليـب، ثم أخذ قففا كبـارا مـلأهـا بـالحطـب المسقـي بـالنفـط والـزفـت، والـزيـت والكتـان والكبريت، فـرماهم بسبعين سلة منهـا، فأحرق البرجين الآخريـن، ثم ان أهل صـور حفروا سراديـب تحت الارض ليسقط فيهـا الفرنـج اذا زحفوا اليهم، فاستـامن الى الافرنج مـن أهل البلد نفر مـن المسلمين واعلموهم بما عملوا فحذروا.

وأرسـل اهل البلـد الى اتابـك طغتكين صـاحب دمشـق يستنجدونـه ويطلبـون ان يسلموا اليـه البلد، فسـار في عسكـره الى نواحـي بانيـاس، وسير إليهـم نجدة مـائتي فـارس ، فدخلـوا البلـد، فامتنـع من فيـه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفـا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لايعلم من خزنه.

ثم إن عـز الملك صـاحب صـور أرسل الى طغتكين ليكثـر من تجنيـد الرجال ويقصـدهم ليملك البلد، فـأرسل طغتكين طائرا فيه رقعـة يعلمه بوصـول المال، ويأمره ان يقيـم بمكان ذكره ليجـيء الرجال إليـه، فسقط الطـائر على مركـب للفـرنـج، فأخـذه رجـلان: مسلـم وأفرنجـي، فقـال المسلم: نـرسله لعـل ان يكون فيـه فرج لهم، فلـم يمكنه الافـرنجي مـن ارسالـه وحمله الى الملـك بغدويـن، فلما وقف عليـه سير مركبـا الى المكان الذي ذكـره طغتكين، وفيه جماعة مـن المسلمين الذيـن استأمنوا إليـه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بـالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائبا بعسقلان من جهة الآمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الافضل ابن أمير الجيوش رتبه فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولا فاولا، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الافضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويجيشه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يحرضونه بهذا القول ومثله.....

ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سكمان أيضاً بالكاف موضع القاف ــ بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

رجوعه من بلاد حلب الى بلاده، وكان قد مرض ومات فيها، فحمل تابوته الى خلاط ودفن بها، وقيل دفن في ميافارقين، وكان ملكا عادلا مجاهدا خيرا، وقيل مات في ميافارقين ودفن بها، والله أعلم، وكان أبوه أرتق مات بالقدس.

obeikandl.com

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الافرنج صحبة الامير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم ماذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلازمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الافرنج ان يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين اليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ماتشعث من سورهم وخندقهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب واليها وأهلها إلى أتابك طغتكين يستنجدونه ويسألونه ان يسلموها إليه قبل مجيء الافرنج لانهم أيسوا من نصرة أهل مصر، فبعث إليهم أتابك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقاتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة، فلم يقدروا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحه عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخندقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبال الافرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الافرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبة ويقوي قلوبهم، وعمل الافرنج برجين عظيمين، وزحفوا بهما الى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفا وأربعين ذراعا، وزحفوا اول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الافرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لاتوصف (كثرته) فحينئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ماكان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولاوفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لالرغبة في حصن ولامال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسي ورجالي، وكان من سعادته أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزا عن حفظ صور ودمشق، وصور ماكان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرآة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ماقاسوا من الحصار والقتال وعدم نصرة أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسولهم إلى بانياس، ووالياها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى الى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر الى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالمسير معه الى بانياس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وبلغ أتابك فبعث قطعة من الأتراك إلى تقوية صور، فساروا إليها ودخلوها، وطابت نفوس أهل صور، ثم كتب إلى الأفضل وزير مصر بأن الأفرنج نزلوا على صور، وشارفوا على أخذها، وبعث أهلها الي يستنجدونني، واني أنجدتهم بنفسي، ومالي ورجالي، ومتى وصل إليهم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاصطول.

وجاء بغدوين، فبلغه الخبر فتوقف وفات غرضه، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد، وكثر فساده، ثم كتب أتابك إلى مودود صاحب الموصل يخبره بالخبر، ويطلب نجدته، وكانا قد اتفقا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسار مودود بعساكره فقطع الفرات، وخرج إليه أتابك طغتكين، فتلاقيا عند سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين، وسارا من حمص ومعهما عساكر الشرق وعساكر حمص وحماة ودمشق، وجاءوا على البقاع فنزلوا الغور عند الاقحوانه، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتعلفة فالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغدوين بعدما قبض وأخذ سلاحه، وغرق أكثرهم في البحيرة، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعث سلاحهم، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا، وأخربوا ونهبوا وعادوا إلى دمشق، ونزل مودود في قصر الميدان الأخضر، وبذل أتابك طغتكين جهده في التقدمة، ودخل يوم الجمعة الجامع، وزار المصحف العثماني، ثم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسمائة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه ان الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسمائة وهو الحصن المنيع الذي لايرام ولايقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالت عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستمائة على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسمائة:

وفيها سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعها إلى سروج، وأهمل أمر الافرنج ولم يحترز منهم، فلم يشعر الا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشر، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الافرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تأهب المسلمون للقائه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيها عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادعة والمسالمة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجابه الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقامت الأمور وأمنت السبل، ومشت التجار من جميع الأقطار.

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيزر في عيد فصح النصارى، فوثب فيه مائة رجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابه، وكان بنومنقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وبلغهم الامر فجاءوا، وكانوا قد أحسنوا الى هؤلاء الذين وثبوا، وإنما رتبوا ذلك في المدة الطويلة، ودلت الحرم الحبال من القلعة وتسلقت رجال ونزلوا وفتحوا الأبواب، ودخل بنو منقذ فقاتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية، ووقع الاحتراز بعد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيل كان بنو منقذ خرجوا إلى الصيد، وفعلت الباطنية ماذكرنا لانتهازهم الفرصة... ...

الأمير سقمان بن أرتق، قد ذكرنا وفاته في هذه السنة، ثم أربع وخمسمائة، وذكر المؤيد وفاته في تاريخه في هذه السنة، ثم قال: ولما توفي سقمان ملك خلاط بعده ابنه ظهير الدين ابراهيم بن سقمان، وسلك سيرة أبيه، وبقي في ملك خلاط إلى أن توفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة، فتولى مكانه أخوه أحمد بن سقمان الى ان توفي في الولاية بعد أحد عشر شهراً، ثم تحكمت والدتهما اينانج خاتون ابنة أركماز، وبقيت مستبدة بمملكة خلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابراهيم بن سقمان، وكان عمره ست سنين، فقصدت اعدامه لتنفرد بالمملكة، فلما رأى كبراء الدولة سوء نيتها لولد ولدها المذكور اتفق جماعة منهم وخنقوها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، واشتغل ابن ابنها شاه أرمن سقمان بن

ابـراهيـم بـن سقمان في الملـك إلى سنـة تسـع وتسعين وخمسمائة على ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمني صاحب بـلاد الأرمن، هلـك في هذه السنة، فقصـدها صاحب أنطاكيـة الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعـروفة الآن ببلاد سيس فمات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجـي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنـة وهو قاصد بـلاد الأرمن كما ذكـرنـا الآن، وتـولى أنطاكيـة بعـده ابـن أخيه سيرجـال الافرنجي.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسمائة:

استهلـت هذه السنـة والخليفة هـو المستظهـر باللـه، وبقية أصحـاب البـلاد على حالهم، غير أن صـاحب حلـب رضوان، وصـاحب الموصـل مودود ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في تـرجمته، هـو فخر الـدولة، ويقـال فخر الملـك رضوان بـن الملك تاج الدولة تتش ابن السلطـان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق صـاحب حلب، ملك حلب في السنة التـي قتل أبوه فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرتـه، وكانت سيرته قبيحـة، وأموره غير مرضية، وكـان قد قتل أخويـه قبل موته، وهما: أبـو طالب، وبهرام، وكان يستعين بـالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه.

وفي المرآة: وكان ظالما بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولايخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحدا بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضا مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستمائة ألف دينار.

ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرسا، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلهما مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم ابي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقين وأطلقهم فتفرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تاريخ العظيمي: ووثب صاعد بن بديع رئيس حلب على الباطنية ومقدمهم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتل منهم جماعة، وملأ منهم السجون، وقتل من مقدميهم جماعة ظفروا بهم، مقدار مائة وخمسين رجلاً، وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضوان، فمال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السماق وسرمين والمعرة وتلك النواحي، فلما مات رضوان قرر ابن بديع رئيس الأحداث بحلب مع ألب أرسلان بن رضوان على قتلهم وجرى ماذكرنا.

ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكلام فيه على أنواع، الأول في ترجمته: هو الأمير مودود بن ألطنطاش التركي، وكان ألطنطاش من مماليك السلاجقة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسمائة، أخذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلا خيرا عادلا، صاحب سيرة حسنة.

الثالث في مقتله: وقصته أنه اجتمع في هذه ا لسنة المسلمون، وفيهم الأمير مودودهذا وغيزك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازي، وأتابك طغتكين صاحب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبب اجتماع المسلمين أن بردويل تابع الغارات على بلد دمشق، فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه، فجمع العساكر وسار فعبر الفرات، فخاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فساروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الافرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوما والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج مابين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائما فقيل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الافرنج الى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها الى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تاريخ المؤيد: ودخل مودود الجامع ومعه طغتكين وأصحابهما فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيان في صحن الجامع، فوثب باطني على مودود وضربه بسكين، وقتل الباطني وحمل مودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرآة: لما عاد مودود من قتال الأفرنج نزل في دمشق في الميدان الأخضر، وكان يدخل في كل جمعة إلى دمشق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحف عثمان رضي الله عنه، فدخل إلى الجامع على عادته، ومعه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسللة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يديه خدمة له، فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لايؤبه له، ولايحفل به، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويطلب الصدقة، وضربه بخنجر أسفل سرته ضربتين احداهما نفذت إلى خاصرته، والأخرى إلى فخذه، والسيوف تأخذه من كل ناحية، وقطع رأسه ليعرف شخصه وما عرف، فأحرق، وعدا أتابك خطوات وقت الكائنة وأحاط به أصحابه، ورجع إلى مودود وهو يمشي متماسكا حتى وقع عند الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتابك وخيط جرحه، فعاش ساعات يسيرة ومات في يومه، فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه، وحزن حزنا شديدا، وكذا سائر الناس، ودفن في مشهد داخل باب الفراديس، وشرع أصحابه في العود إلى الموصل وغيرها من البلاد، وأمر لهم باطلاق يستدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأسبابه، ولم يزل مدفونا حتى وصل من زوجته وولده من الموصل - في شهر رمضان - من حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صائما فلم يفعل، وقال: والله مالقيت الله إلا صائما، وكتب بغدوين ملك الافرنج الى طغتكين: «ان امة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله ان يبيدها» وقول بغدوين: «يوم عيدها» يعني «يوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسمائة، وذكر بعضهم ان أتابك

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل.....

obeikandl.com

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على مانذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مصر على يد شيركوه وماجريات ماحدث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سفرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ماذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبت امدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ماأخذوا مدينة بلبيس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موئلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بلبيس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقيما عندهم وله اقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تاريخ بيبرس: قدم الفرنج من الساحل إلى مصر طامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هو بصدده، ورأوا خلو مصر من الجند وأن ليس بها مانع، وراسلوا ملكهم مري في ذلك فلم يجبهم إليه، فقالوا: إن لنا بها قوة، وان شاور كان لما فارقه الفرنج ترك عنده بمصر جماعة منهم يحرسونه ممن يأتي إليه من عسكر الشام، فقال لهم مري: فهذا لايتم لنا وإن ملكناهم لم تطعنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الدين فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنج ووهنا، فساروا وأظهروا أنهم قاصدوا حمص، فلما سمع نور الدين بذلك جمع عساكره وسار الفرنج من الساحل، فقدموا بلبيس ونازلوها، فأرجف الناس بذلك، وشرع شاور في بناء حصن على مصر استعمل فيه جميع أهل مصر، وحفر خندقا، وكان في عسكر الفرنج جماعة من الأمراء المصريين ممن هرب من شاور: يحيى بن الخياط، وابن قزلجا، وعلم الملك ابن النحاس، فملكوا بلبيس عنوة وسبوا أهلها وقتلوا فيها خلقاً كثيراً ، وأسروا ابن شاور، وساروا طالبين القاهرة، ولما قربوا منها أمر شاور باحراق مصر فأحرقت، وانتقل بعض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النار مستمرة الحريق فيها أربعة وخمسين يوماً، ولما علم أهل القاهرة عجزهم عن مقاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الدين بن زنكي يستغيثون به من الفرنج، وأرسلوا إليه شعور النساء في طي الكتب، وأرسل شاور إلى مري ملك الافرنج يبذل له مالا على أن يرحل ويزيح الافرنج عن القاهرة ، وتقرر الحال على ألف ألف دينار، فقال مري لأصحابه: نأخذ هذا المال نتقوى به ولانبالي بعد ذلك بنور الدين، واستوثق شاور منه بالايمان، وعجل له من المقرر مائة ألف دينار وأخذ

يباطله بالباقي ويمنيه، وشرع شاور يجمع من أهل القاهرة مالا، فلم يحصل له شيء لضعف أهلها، ولم يجتمع له بالجهد والمصادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خلال ذلك كانت الرسل متواترة إلى نور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شيركوه.

وفي المرآة: وفي صفر خرج الأفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية، فنزلوا على بلبيس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج، وقتل البعض وهرب الباقون، ثم سار الفرنج من بلبيس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق فلم يجد شاور بدا من أن كاتب نور الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأوليتين اطلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، ولما علم نور الدين بذلك استرجع وخاف عليها، فقال لشيركوه؛ خذ العساكر وتوجه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه، فامتنع وقال: يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد، فقال: لابد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا الى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضد إلى نور الدين بذلك أرسل الى أسد الدين يستدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، فأتى من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في الخزائن وأمر العساكر، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فارس من العسكر

الذي مع أسد الدين عشرين دينار معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنصرين من الله عز وجل وذلك في منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه على رأس الماء، فأقام ينتظر بورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان ــ يعني ــ صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وماخرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يايوسف فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالاأنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب ومااحتاج إليه، فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت،

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها مالاكنت أتوقعه، وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
ولا للاعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها هزبر هصور
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الاجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرىء صلى مع الناس
مأموما كمن صلى فرادا[٣]

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي[٤]

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفيه بحارة قطامش جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مع العساكر إلى بلاد مصر في السابع من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما وصلوا وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة خائبين، فدخل شيركوه على العاضد في ذلك اليوم وخلع عليه خلعة سنية فلبسها وعاد إلى مخيمه بالخلع العاضدية بظاهر البلد، وفرح المسلمون بقدومه إليهم، وأجريت عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد متنكراً فأسر إليه أمورا مهمة منها قتل الوزير شاور، فقرر ذلك معه، وعظم أمر شيركوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء من ذلك لكثرة الجيش الذي مع أسد الدين، ولكن شرع يماطل فيما كان قرر لهم وللملك نور الدين بما كانوا التزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد الى أسد الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قرب شيركوه من القاهرة عاد الفرنج عنها إلى بلادهم، ومعهم من الأسرى اثني عشر ألف نفس من الجند والعامة وغيرهم، ودخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر من هذه السنة، فلتقاه العاضد وأجلسه إلى جانبه، وخلع عليه، وضربت البشائر، وشرع في اطفاء النار بمصر، وتقدم العاضد بأن ينزل على شاطىء النيل بالمقس، وقام شاور بعسكر شيركوه، وأقام لهم الضيافات، وأظهر له ودا كثيرا، واعتمد أن يتردد إليه كل يوم، فطلب شيركوه منه مالاينفقه في عسكره، فدافع في ذلك، فسير إليه الفقيه عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جياع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى عليك منهم، فلم يكترث شاور بكلامه، فلما طالت مطالبتهم له عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلننا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلننا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لومشى العاضد لنور الدين ماأغاثه، ولاأرسل أحدا ويملكون البلاد. فترك ماكان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية مماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرآة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على ماذكرناه.

الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور ماذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً، ولم يمكنه الا اتمام ماعملوه، وأرسل الى الضاحب صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتتابع الرسل بذلك فقتل شاور في يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه الى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ماخاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شداد: وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في قبالة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وعلموا أنه لاسبيل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فاجتمع أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر منهم على قبضه إلا السلطان نفسه، يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرآة: واختلفوا في كيفية مقتل شاور على أقوال: أحدها أن الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته الفرنج، وأن أسد الدين تمارض، وكان شاور يخرج إليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوقع إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهزم أصحابه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتي أيمان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شيركوه على ماتذكره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يحنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هـذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصره بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمير الجيوش، وهو الـذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك ـ كما قلنـا ـ وهو أول من استكتـب القاضي الفاضل، استـدعى به من اسكنـدرية مـن باب السـدرة، فحظي عنـده، وانحصر منه الكتـاب بالقصر لما رأوا مـن فضيلته، وكـان شاور على تـوليه الصعيـد، ولاه الملك الصالح طـلائع بن رزيك ـ كما ذكـرنا ـ ولما جرح الصـالح، وأشرف على الوفـاة كان يعد لنفسه ثـلاث غلطات: أحدها تـولية شاور، والثانيـة بناء الجامـع المعـروف به على بـاب زويلـة، وكـان قـد بقي عـونـا لمن يحاصر القاهـرة، والثالثـة خروجـه إلى بلبيس بـالعساكـر ورجوعـه بعد أن أنفـق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستـأصل شأفة الفرنـج، وقد ذكرنا أن شـاور قد تمكن في الصعيـد، وكـان ذا شهامـة وفـروسيـة، وكـان قد قـدم الصعيـد على الواحـات ، واخترق تلك البراري إلى أن خـرج عند تـروجه بـالقرب مـن الاسكندرية، وتـوجه إلى القاهرة ودخلهـا يوم الأحد الثاني والعشريـن من المحـرم سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة وهـرب العـادل رزيـك وأهلـه مـن القاهـرة ليلة العشرين مـن المحرم وقتل العادل بـن صالح وأخـذ شاور موضعـه من الوزارة واستـولى، ثم لما خرج أبو الأشبـال ضرغام بن عـامر توجه إلى الشـام مستنجدا بنور الدين محمـود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ـ كما ذكرنـاه ـ وتولى ضرغام الوزارة مكـانه، فأنجده نـور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهـورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السـابع عشر، وقيل الثـامن عشر من ربيـع الآخر من سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودفـن في تربـة ولـده طي، وهـي في القـرافة الصغـرى بالقـرب من تربـة الفاضل القاضي، وللفقيـه عمارة فيه مدائح مـن جملتها قوله من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
من نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفر

وقال عماره اليمني: قضى قدوم الغُزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغُزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ماهو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولاأتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ماذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب مافي دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتبا له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه وانقطع أمله.

وفي تاريخ بيبرس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور فتفرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شيركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليدا.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيرا، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شيركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ماأودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ماقضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر ارشاده، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الدنيا تخلعة الأنوار على الظلم، وعدمت أنظاره بما وجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم، وانتقم الله به من ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم، وزاد عن موارد الدين من هو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ماحتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينه، وقضى على يده من نصرة الدين دينه، ﴿لو أنفقت مافي الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال ٦٣] والحمد لله الذي خص جدنا محمد بشرف الاصطفاء والاجتباء، وانهضه من الرسالة بأثقل الاعباء، ووفر له من شرف المقام المحمود أوفر الانصباء، وأقام به القسطاس، وطهر به الادناس، وأمده بالصابرين في البأساء والضراء «وحين البأس» وألبس شريعته من مكارم الافعال والاقوال أحسن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لاتنقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، والحمد لله الذي اختار لأمير المؤمنين من يقوم في أمته مقامه ويهدي بمراشد نوره الى دار المقامه، وأوضح به منار الحق وأعلامه، وجعله شهيد عصره، وحجة أمره، وباب رزقه، وسبيل حقه، وشفيع أوليائه، والمستجار في الخطوب بلوائه، والمضمونه له وبه العقبى، والمسؤول له الأجر في القربى، والمفترض له الطاعة على كل مكلف، والغاية التي لايقصر عنها بولائه من تأخر في مضمار النجاة وتخلف، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لايقبل عمل الا بخفارة ولائه، ولاينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولايضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة، ولادين ولا دنيا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليتبين الذين اختلفوا فيه، وليعلموا انما هو إله واحد، يحمده أمير المؤمنين على ماحباه من التأييد الذي ظهر فبهر، وانتشر فعم نفعه البشر، والاستظهار الذي استنزل فيه جنود السماء والأرض، الذي عقد الله منه عقدا لاتدخل عليه أحكام النقض، والانتصار الذي أبان به معنى قوله:﴿ولولا دفع الله ـاس بعضهم ببعض﴾ (البقرة ٢٥١) ونسأله أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عواثر الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من ايالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليقة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل من تمن، وائتمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع الى الله اذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح، ولاانتقض عهد غادر الا عاجله الله بأمر فضاح، ولاانقطعت سبيل نصره الا وصلها عزه، يرسل ارسال الرياح، ولاانصدعت عصا ألفة الا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضرا، وأقضاها للامة وطرا، فليهنيك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، وماتأخرت الا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت اليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له، وكم من أناس لابرؤيته بأنصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لايتقيه وكذبه، ومايومك في نصر الاسلام بواحد، ولاأمسك بمجحود وإن رغم أنف الجاحد، أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة، وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رمحه، ولقد اسستشرفتك الصدور، وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفك «ولاقرار على زئير سن الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته، وتوالت عنه عثرات ماأتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالاً، وضيق من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرهاذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد، ومالعهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فواجب أن تنسخ أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو، وجمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بـأثرك قبل طلوع عثيرك، وأكـرم بك من قادم خطـواته مبروزة وسطواتـه للاعـداء مبيرة، وكل يـوم من أيـامه بعـد يسيرة، فإنـك المبعوث الى بـلاد أمير المؤمنين بعث السحـاب المسخر، والمقـدم في تقدم النية وإن كنت في الـزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكـره على عادته في ايحاشك والايحاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربـت الدار وقرت العيـون، وكان كما قال اللـه في كتابه المكنـون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة مـن قبل وقلبوا لك الأمـور حتى جاء الحق وظهر اسـم الله وهـم كارهون﴾ [التـوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديـد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيـد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قـال العماد الكاتـب: وكتب لأسـد الـدين منشـور من القصر، بسيـط الشرح، طويـل الطي والنشر، كتب العاضـد في طرته بخطه، ولاشـك انه بـاملاء كتـابه: «هـذا عهد لم يعهـد لوزيـر بمثله، وتقلـد أمانـة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجـة عليك عند الله بما أوضحه لك مـن مراشد سبله، فخذ كتـاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخـار بأن اعتزت خدمتـك إلى بنوة النبـوة، واتخذه للفوز سبيـلا ، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعـد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليـه محمد العاضد لدين اللـه أمير المؤمنين، إلى السيد الاجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين، وداعي دعـاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الـدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سـلام عليك، فإنـه يحمد إليـك الله الذي لا إلـه الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمـد خـاتـم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آلـه الطاهريـن، والأئمة المهديين، وسلم تسليما». ثـم ذكر باقي المنشـور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليـل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاور، فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتبا، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزدد كل يوم الا تقد ما، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين، أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شادي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المراقي العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب

أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى
والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:

مـــن شر شـــاور أنقـــذت العبـــاد فكـــم
وكـــم قضيـــت لحزب اللـــه مـــن أرب
هـــو الـــذي أطمـــع الافـرنـــج في بلـــد الـــ
اســـلام حتـــى سعـــوا للقصـــد والطلـــب
ومـــا غضبـــت لـــديـــن اللـــه منتقما
الا لنيـــل رضـــى الـــرحمن بـــالغضـــب
وحين سرت الى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول اللـــه بـــالـــرعـــب
يـــا محيـــي الامـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي

الى ان قال:

فـــالجد والجد مقـــرونـــان في قـــرن
والحزم في العـــزم والادراك بـــالطلـــب
فطهـــر المسجـــد الاقصـــى وحـــوزتـــه
مـــن النجـــاســـات والاشراك والصلـــب
عســـاك تظفـــر في الـــدنيـــا بحســـن ثنـــا
وفي القيـــامـــة تلقـــى خير منقلـــب(٥)

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقر شيركوه في الوزارة ولم يبق له منازع واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأزلامه عرض له مرض شديد بعلة الخوانيق، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرآة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلاط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الاقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور،فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهماته، وسلم إليه اولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه ـ كما ذكرنا ـ ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلار، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلار وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه مايريد ومايراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينه مودة متأكدة، وما يمكنني ان اكافيكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجا من بلدي، وتطلبا الرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ماأمكنهما المقام بتكريت وقصدا والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك لما كان قد تقدم لهما عنده، وذلك ان زنكي دخل تكريت عندهما حين هرب من قراجا الساقي، وأحسنا إليه وخدماه خدمة بليغة، ولما دخل أيوب وشيركوه عند أتابك زنكي في الموصل أحسن هو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعهما اقطاعا حسنا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين ايوب، واقره بعده نور الدين محمود ولده، فحظيا عند نور الدين كما كانا عند والده زنكي، وصار شيركوه أكبر امراء نور الدين وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص مع ماله عنده من الاقطاعات، وذلك لشهامته وصرامته وجهاده في أعداء الله الفرنج وغيرهم في أيام معدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك مافعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عوضا عن شاور يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الدولتين: وكان شيركوه شجاعا بارعا قويا جلدا في ذات الله، شديدا على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفا دينا، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الايثار، حدبا على أقاربه وأهله، وكان فيه امساك، وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشاديه والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الاسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبته الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة اليازوقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحاؤه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلّده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الأمراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتخلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة اليباروقي فإنه قال: لاأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة اليباروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال

إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره ايضا عنده وحلفه له، ثم عدل الى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير اليساروقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعده وزاد اقطاعه، فأطاع صلاح الدين ايضا، وعدل الى عين الدولة اليساروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا، فلم ينفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الامر، ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [الانفال ٤٢] وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولايتصرفون الا عن امره، وكان نور الدين يكتب إليه: «الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا»، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئا يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم فيفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ماهو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم، والخلل لايلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأمضى رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ماجمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته ورياته، وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم][٦] كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ماكان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وماانتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش و برح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله:

يا أيها الغائبون عني وأن كنتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لاراكم بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

أيها الظـــاعنـــون عنـــي وقلبـــي
معهـــم لايفـــارق الأظعـــانـــا
ملكـــوا مصر مثـــل قلبـــي وفي هـــ
ـــذا وتلـــك أصبحـــو اسكـــانـــا
فـــاعـــدلـــوا فيهما فـــانكـــم اليـــوم
ملكتـــم عليهما سلطـــانـــا
لاتـــروعـــوا بـــالهجـــر قلـــب محب
أورثتـــه روعـــاتـــه الخفقـــانـــا

الأبيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنيه الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لايكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:

فـــالشـــام يغبـــط مصر مـــذ حللـــت بها
كما الفـــرات عليكـــم يحســـد النيـــلا
نلتـــم مـــن الملـــك عفـــوا مـــا الملـــوك بـــه
عنـــوا قـــديما ورامـــوه فما نيـــلا

وقال العماد: ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين، وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعضـــع في هـــذا المصـــاب المبـــاغـــت
مـــن الـــديـــن لـــولا نـــوره كـــل ثـــابـــت
فـــأيـــام نـــور الـــديـــن دامـــت منيرة
لنـــا خلفـــا مـــن كـــل مـــود وفـــائت
فما بـــالنـــا نبـــدي التصـــام غفلـــة
وداعـــي المنـــايـــا نـــاطـــق غير صـــامـــت

نـــؤمـــل في دار الفنـــاء بقـــاءنـــا
ونـرجـو مـن الـدنيا صـداقـة مـاقـت
ومـا النـاس الا كـالغصـون يـد الـردي
تقترب منهـا كـل عـود لنـا حـت
لقـد أبلغـت رسـل المنـايـا وأسمعـت
ولكنهـا لم تحظ منـا بنـاصـت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمد:

مـا بعـد يـومـك للمعنـى المدنـف
غير العـويـل وحسرة المتـأسـف
مـا أجـرأ الحدثـان كيـف سطـا على الا
سـد المخـوف سطـا ولم يتخـوف
مـن ذا رأى الأسـد الهصـور فـريسـة
أم ابصر الصبـح المنير وقـد خفـي
مـن ثـابـت دون الكماة سـواه ان
زلـت بهم اقـدامهـم في الموقـف
مـا كـان اسنـى البـدر لـو لم يستتر
مـا كـان أبهى الشمـس لـو لم تكسـف
مـا كنـت اخشـى ان تلـم ملمـة
يـومـا وأنـت لكـربها لم تكشـف
أيـام عمـرك لم تـزل مقسـومـة
للـه بين تعفـف وتعـرف
متهجـد العبـاده او تـاليـا
مـن آيـة او نـاظـر في مصحـف
فجـع الندى والباس منـك بحـاتـم
وبحيـدر والحلـم منـك بـأحنـف
بـا الملـك فـزت وحـزتـه عـن قـدرة
ومضيـت عنـه بسيرة المتعفـف

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحا بما ملك به لم يوصف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الامر لصلاح الدين بعد أسد الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الاموال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه، وماازداد الا جدا الى ان توفاه الله الى رحمته.

العاشر: في صفة خلعته التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنيسية بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانية آلاف دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة بذهب، وفيها مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة الياروقي - كما ذكرنا - وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين:

«من عبد الله وليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمة، منجد الأمة، صلاح الدين، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين، وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمد لله مصرف الاقدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعاقب فيه أحوال الأقمار بين انقضاء واستقبال سرار، وروضاء إذا ذوت فيه الدوحات أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصر دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الالهام عن رؤية الاختيار، وعضد به الدين الذي ارتضاه، وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعادة ماقضاه قبل اقتضاه، ورفع محله عن الخلع فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته الأسد وشبله ونعمته ميراثا أولى به ذوي الارحام من بني الاولاد وأهله، وأظهر في هذه القضية ماأظهر في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله، فأولياؤه كالآيات التي سبق ذراري أفقها المنير، ونسق درر عقدتها النظم النضير، ﴿ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة ١٠٦] والحمد لله الذي أتم له الرشاد، وجعله أولى من خلق ساد وللحق شاد، وآثره بالمقام الذي لاينبغي الا له في عصره، وأظهر له من المعجزات لنصره مالايستقل العدد بحصره، وجمع له ولمن والاه من رفع قدره، ووضع أصره، وجعل الامامة موضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بأمره، وأودعه

من الحكم التي رآه لها أحوط من أودعه، واطلع من وجهه أنوار الفجر الذي جهل من ظن ان من غير مطلعه، وآتاه مالم يؤت أحدا، وأمات به غياً وأحيا رشدا، وأقامه للدين عاضدا فأصبح به معتضدا، نحمده على ماآتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويدني البعيد النازح، ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح، ويلزم آراءه جدد السعود الواضح، ويؤتيه آيات الارشاد فأية نار قدح القادح، ونصلي على النبي محمد الذي أنجى أهل الايمان ببعثه، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد[٧] وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الالحاد.

ومنه:

وإن الله سبحانه وتعالى ماأخلى دولة أمير المؤمنين التي هي محط الهدى، من لطف تلافى الحادثة بشعبها، ولما لم تكد تنسى الحادثة في الأجل الملك المنصور أسد الدين شيركوه رضي الله عنه، نظر أمير المؤمنين في اصطفائك أيها السيد الاجل الملك الناصر لخدمته بعده لتسد في تقدمة الجيوش مسده، وتلحق به في المجد أولك، ونحمد فيك العواقب ولك، فاعلم هذا من أمره ورسمه، واعمل بموجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صلاح الدين الديار المصرية بالوزارة أرسل الى نور الدين يطلب أباه أيوب وأخوته وقرابته، فأرسلهم مكرمين مع جماعة من ألزامهم وأهل مودتهم، وشرط عليهم السمع والطاعة له واستقر أمره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالغ في احترامه والاقبال عليه وقال: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش ﴾إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾[يوسف: ١٠٠ ـ ١٠١].

ثم بعد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعف، والدولة الايوبية في القوة، ولما اجتمع صلاح الدين يوسف مع أبيه سلك معه الأدب، وفوض إليه الأمر كله، فقال له: ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر الا وأنت جدير به، فلا ينبغي ان تعبر مواقع السفارة، وحكمه في الخزائن كلها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على الخليج، وأعطاه وأهله الاقطاعات الجليلة بمصر، وتمكن صلاح الدين من البلاد، وضعف أمر العاضد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صاحب تاريخ الدولتين: إن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقال: كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا بغير أمري، فكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت إليه الملك الناصر صلاح الدين، الا انه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه مافارق قبول رأيه واشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً مايقول: ملك ابن أيوب، ولما ملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله، واعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر ذلك، ويقال: إنه لما مرض قال: ماأخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها، ومايحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت الى

أصحابه فقال: إذا مـا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فـإنه لايبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقـد كان يبلغ الملك الناصر من أقـوال نور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تؤلمه وتمضـه، غير أن يلقاها بصدر رحـب، وخلق عـذب، قال صـلاح الـدين: ولقـد كـان يعتمد نـور الـدين في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشياء التي لايصبر على مثلها لعلي أتضـور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

وقال صاحب تـاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخـط نور الدين يشكر فيـه من صلاح الديـن، وذاك ضد ماقـاله ابن أبي طي، كتـب نور الـدين ذلـك الكتاب الى الشيـخ شرف الديـن بن أبي عصرون رحمه اللـه وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي اللـه وكفى، وفق اللـه الشيخ الامـام شرف الدين الى طـاعته وختـم له بخير. غير خـاف عن الشيـخ ماأنـا عليه وفيـه، وكل غـرضي ومقصودي في مصـالح المسلمين ومايقربنـي إلى الله، والله ولي التـوفيق، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قال عز من قـائل ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد ٤٣].

أنت تعلـم أن مصر اليوم قـد لزمنا النظـر فيها، فهـي من الفتـوحات الكبار، اللـه تعالى جعلها دار اسـلام بعدما كـانت دار كفر ونفـاق، فلله المنة والحمـد، الا ان المقدم على كـل شيء أمور الديـن التي هـي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلـم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خـالية من أمـور الشرع، ومـاتـدخـر الـدمـوع الا للشـدائد، وأنـا مـاكنـت أسخـى ولاأشتهـي مفـارقتـك، والان قـد تعين علي وعليـك أيضـا ان ننظـر الى مصالحها، ومـا لنا أحد اليوم لها الا انـت، ولا اقدر اولي امورها واقلـدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذستي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسلما»

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم مايستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه مايستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله باشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤتمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسديه والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة، فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه، نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شق العصي العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب، وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسل واستسبل، وظن أن مانسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قريه يقال لها الخرقانية، وهي بقرب قليوب، فخلافيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعته بانقضاء دولته، فأنهض صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع من حياته لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيبرس: خرج مؤتمن الخلافة ذات يوم إلى بستان له بقليوب، فسير إليه جماعة من أصحابه فقتلوه وأتوا برأسه، ثم استعمل على أذمة القصور قراقوش، وهو خصي من مماليك عمه أسد الدين ليطالعه بما يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا الى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعا، فلما أتاهم الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف ، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستانا، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولاكبيرة الا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئا من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوما، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرسا، فقال: والله ماعندي الا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ماكان.

وقال ابن كثير: وحين قامت الحرب بينهم، كان العاضد ينظر من القصر، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره، فأمر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظرة العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوبية هربوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صلاح الدين أخاه تورانشاه فقاتلهم وهزمهم ولم ينج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نواب البلاد بقتل من وجد منهم، وكان جوهر هذا سببا لزوال ملك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، فحسبوا ان كل بيضاء شحمة، وان كل سوداء فحمة، فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجاء ومقدمهم أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت به العسكرية من الجانبين، ودام الشر فيه يومين حتى حس الاساحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا، وأينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت لهم المعمرة المعمورة، فأتى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أوده بمصر لما سمع بحركة الفرنج، وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنية له بالملك وتعزية له:

أيا يوسف الحسن والاحسان خير من
حوى الفضل والافضال والنهي والأمرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
تجلى وثغر الثغر من عزمه أفترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه
من الخالق الحسني ومن خلقه الشكرا
أبوه أبي الا العلاء وعمه
بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله
وما شاركوه في العلى فحوى الفخرا
بنو الأصفر الافرنج لاقوا ببيضه
وسمر عواليه منايا هم حمرا
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه
من الخصب حتى اسود النقع واحمرا
رأى النصر في تقوى الاله وكل من
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

ياهل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت اطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:

وأنثر دمع الدر من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فاصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه ابياتا منها:

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قبل يوسف شاورا
يماثل الا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ماشئتا

ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بـــا لملـــك النـــاصر استنـــارت
في عصرنـــا أوجـــه الفضـــائل
على مـــن حقـــه فـــروض
شكـــرا لما جـــاد مـــن نـــوافـــل
يـــوســـف مصر الـــذي إليـــه
تشـــد آمـــالنـــا الـــرواحـــل

أجـــريـــت نيلين في ثـــراهـــا
نيـــل نجيـــع ونيـــل نـــائل
ومـــا نفيـــت الســـودان حتـــى
حكمـــت البيـــض في المقـــاتـــل

الأبيات:

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يـــا صـــلاح الـــديـــن الـــذي أصلـــح الفـــا
ســـد بـــالعـــدل منـــه خطـــوب الـــزمـــان
أنـــت أجـــريـــت نيـــل مصر الى الشـــا
م نـــوالا أم ســـال نيـــل ثـــاني
وعلى نيلهـــا الكفيـــك فضـــل
فهما بـــالنضـــار جـــاريتـــان
وصلـــت أعطيـــاتـــك الغـــر غـــزرا
فتلقـــت آمـــالنـــا بـــالتهـــاني
خلـــع راقـــت العيـــون وراعـــت
وغـــلا وصفهـــا عـــن الامكـــان

مـــذهبـــات كـــأنها خلـــع الـــرضـــوان
قـــد أهـــديـــت لاهـــل الجنـــان
مشرفـــات بطـــرزهـــا الـــذهبيـــا
ت الحســـان الـــرفيعـــة الاثمان
فـــالعمامـــات كـــالغمامـــات والطـــر
ز تـــــروق كثيرة اللمعـــــان
والموالي بها مـــن التيـــه والفخـــ
ـــر على الـــدهـــر ســـاحبـــوا الاردان
كيـــف خـــص العماد بـــالادون المخـــ
ـــلق مـــن دون عصبـــة الـــديـــوان

الأبيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:

عبـــدك شمـــس الـــدولـــة المرتجا
منتظـــر تشريفـــك المذهبـــا
وأعتـــب صـــلاح الـــديـــن في حـــالتـــي
عســـاه بـــالاصـــلاح ان يعتبـــا
عـــرفـــه مـــا تـــم فـــإني أرى
مـــن فضلـــه للفضـــل ان يغضبـــا
وكيـــف يـــرضـــى ذاك بعـــض الـــرضـــى
ومجده بـــأبـــاه كـــل الابـــا
وقـــل لـــه جـــاءتـــه ملبـــوســـة
تخلفـــت مـــن تبـــع في سبـــا
عمامـــة رقـــت ورثـــت فما
نشـــرتهـــا الاوطـــارت هبـــا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبت الا حريصا
أتى منك السلام لنا عموما
وجودك جاءني وحدي خصوصا
وكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصا[٨]

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والافرنج وبينكم
سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشآم فقير[٩]

وقال ايضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الالف دينار
أخشى من الاسر ان حاولت ارضكم
وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري

حمراكـــأسيـــافكـــم غبراكخيلكـــم
عتقـــاثقـــالاكـــأعـــدائي وأطماري[١٠]

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:
يـــامـــالكـــامـــابـــرحـــت كفـــه
تجودبـــــــالمال على كفـــــــي
أفلـــح بـــالعشريـــن مـــن لم يـــزل
في رأس عشريـــن مـــن الكهـــف
يـــاألـــف مـــولاي ولكنهـــا
محســـوبـــة مـــن جملـــه الألـــف[١١]

وذكـر العماد في الخريدة أن العـرقلـة قصـد صلاح الـديـن إلى مصر، فأعطاه ذلك، وأخـذ له من أخوته مثل ذلـك، فعاد الى دمشق وهومسرور محبور، وكان ذلك ختـام حياته، ودناء أجل وفاته، ومـات بدمشق في سنة ست أو سبع وستين وخمسمائة رحمه الله.

الثـامن عشر: في أشيـاء ملتقطة فيما يتعلـق بالأبـواب المذكورة في أمـر شاور.

وكـان متـولي قوص والصعيـد الأعلى، فلما دفـن الصـالح طـلائع بـن رزيك واستـوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمـة العاضد فخنقهـا، واجتمع الى رزيك أولاد عمتـه ومن جملتهـم عز الـدين حسـام، فعزل شـاور، فعصى عليه، وجمع العربـان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخـرج إليه جماعة من أمرائهـا كانوا كاتبوه، فخـرج رزيك تحت الليل فضل الطـريق وتاه، فـوقع عنـد أطفيـح وثـم بيوت عـرب، فقبضـوا عليـه وحملوه إلى شـاور، وأخرجت إليـه خلع الوزارة وتم أمـره، وأكرم شاور رزيك وصلـب الذي أتى به، ونادى عليـه: هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكـان للصالح إليه احسان، وتفرق آل رزيـك في البلاد، ونجا حسام الذي كـان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنج تفي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكان لشاور ثلاثة أولاد: طي، والكامل، وسليمان، فتبسطوا على الناس فمجوهم، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدا ميل الناس عن شاور بسبب اولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته الى الوزاره، وبلغ ذلك طيا، فدخل على أبيه فأخبره بهذا، ثم قال: تلافى حالك بقتلك رزيك، فأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيامته،ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الامراء وزحفا بالعساكر الى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة، وهرب الى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهما وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا، واستقر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ثم بلغه أن جماعة من الامراء حسدوه وكاتبوا شاور وهو في الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا، ولم يتعرض إلى أموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الاسباب في هلاكه وخروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الامراء.

وأما شاور فإنه لما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة الى تلقيه، وأنزله بجوسق الميدان الاخضر، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الدين لجماعة من أعيان دمشق أ ن يذهبوا

إليه ويسألوه عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فاظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وأخذ جميع ماكان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لايثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الامراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: ياهذا لقد غررتنا وقلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشرذمة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحمالة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفين من غير حرب، إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقاتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام فطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام ،وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار ،وقال: ترحل الآن في أمن الله ودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين: انا لايمكنني مخالفة نور الدين ولا انصرف الا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق أبواب القاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسد الدين ايضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الافرنج مري يستنجده ويقول له: ان أسد الدين طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصل في البلاد طمع فيها، ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لكم معهم عيش ولاقرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار، وقرر له شيئا لقضيم دوابه وشيئا لاسبتاريته، فخرج مري من عسقلان في جموعه الى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة جاء إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصرا لاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكان قد أخذها منهم وأعطاها إلى نجاب وقال له: تحيل حتى تدخل إلى بلبيس وتعطي هذه الاعلام لاسد الدين ينشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في اعضاد الكفار، ففعل ذلك، فلما رأى الأفرنج الأعلام خافوا على بلادهم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانزعج شاور لذلك واستمهل منهم أياما وجمع أمراء المشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلك، فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى، وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلا ثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك خرج

يترقب خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقا من خلف المكان الذي هو فيه، وشق الى الغور، وخرج الى البلقاء، وسلمه الله منه، ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين، وأخبره بالاحوال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد الى القاهرة، وتتبع من علم أنه بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة من أهل مصر وشرد آخرين، ثم توجه أسد الدين في ربيع الاول لسنة اثنتين وستين قاصدا الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاور الا ورود كتاب مري يعرفه فيه بأن أسد الدين قصد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ماكان في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج الى مصر، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع به، وقعدوا جميعا في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماعهم على بلبيس، فنكب عن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفيح وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبته يقفون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها، وعدّى إلى البحر الغربي، وأدرك شاور بعض ساقته ومسقطي عسكره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين الى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما، واستهال قوما يقال لهم الجعفريون والملحيون القرشيون، فأنفذ أسد الدين الى شاور يقول له: أنا احلف بالله وبكل يمين اني لاأقيم ببلاد مصر ولاأعاود إليها أبدا، وما أسأل منك الا نصر الاسلام فقط، وهذا العدو قد حصل في هذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير فتجتمع معي نستأصل شأفته، وما

أظن ان يكون غنيمة أبدا في الاسلام مثل هذه، فقتل شاور الرسول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلك في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام، فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قد أرسل الى اسد الدين خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، ثم وصل الى أسد الدين رسول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ ومائقل حمله، وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهبت، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكره أن يقفوا على تعبئة وأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة، وانهزموا وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فداخلهم الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا ان لامنجا لهم الا الصبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة الى الليل، فولت عساكر الفرنج والمصريين الادبار، وكاد ملك الفرنج مري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى منية ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكندرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها، فحمل الى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يحصره شاور والفرنج ، فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح او ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقوياء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال، ولما سار أسد الدين بالصعيد حصّل من تلك البلاد أموالا عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام رمضان، واتصل به اشتداد الامر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاورا، فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح، وضجرت الفرنج أيضا، وتوسط ملك الافرنج في ذلك، فتقرر امر الصلح على ان شاورا يحمل الى اسد الدين جميع ماغرمه في هذه السفرة، ويعطي الفرنج ثلاثين الف دينار، ويعود كل منهم الى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الافرنج مركبا يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريف الادريسي: كنت في الجملة ممن خرج في المراكب، فلما وصلنا الى ميناء عكا اخذونا واعتقلونا في معصرة القصب الى ان وصل الملك مري فأطلقنا، فخرجنا الى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية[الى عمه] ثم سارا من بلاد مصر وفي قلب أسد الدين من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكر عود الفرنج إلى مصر، وعود أسد الدين إليها وماجرى بعد ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين طمع مُرِي ملك الأفرنج في مصر وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية والاسبتارية فأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته وفرق قراها على أجناده، وكان اللعين لما دخل ديار مصر أقام من أصحابه من كتب له أسماء القرى جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها، ثم سار حتى نزل الداروم، فلما سمع شاور بذلك قامت قيامته وأرسل أميرا من أمرائه يقال له بدران فسأله عن

سبب مجيئه فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا ماالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأي شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن ننزل على بلبيس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بلبيس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب أكثرها، وأحرق جل آدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فانني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فاقتسموهم، وبقي أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في ملك الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير، والملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما جرى ذلك وبلغ شاور، اجتمع بالعاضد وقال: إن البلاد قد أخذت منا فاكتب الى نور الدين واطلب منه المعونة، فكتب جميع ذلك، وسخم شاور أعالي الكتب بالمداد، ولما بلغ نور الدين ذلك انزعج انزعاجا عظيما وانفذ اسد الدين وكان من ذلك ماذكرناه.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وبلغ أجرة الجمل ثلاثين دينارا، وترك الناس اكثر أموالهم فنهبت واحرقت مصر في تاسع رجب كما ذكرنا، ثم إن الافرنج نزلوا في بركة الحبش وتخطفوا من ظفروا به، ثم رحلوا فنزلوا على باب البرقيه نزولا قاربوا به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع في خيمهم، فقاتلوا البلد أياما، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة إلى ان تصل عساكر الشام، فأنفذ الى مري لعنه الله رسالة طويلة وفيها: ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير، ولايمكن تسليمه إليك ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم، وماتعلم انت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي، وتحصل شيئا ادفعه لك، واستقرت المصانعة على اربعمائة ألف دينار، وقيل الفي ألف دينار، فعجل له منها مائة ألف دينار فأجاب مري الى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة الف دينار، ثم اخذ يماطله بالباقي انتظارا لقدوم العساكر، ويوهم انه يجمع الاموال، فلم يشعر الفرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهم رحلوا الى بلبيس، ونزل أسد الدين بالمقس، ثم رحل ملك الافرنج ونزل على فاقوس، واتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس، ثم لما رحلت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى ماذكرنا في الابواب الماضية.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها ان صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولايخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدما كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن باليارقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن باليارقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة آهلة يتردد أهل حلب اليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفرمن هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على اهلها وقتلوا منهم خلقا لايحصون، وهم في أمم لايحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر، فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة مايأمن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكرا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد الى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، الى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا الى عكا، فعاد نور الدين الى دمشق، ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

من المسلمين، واسروا صاحبه، وكان مملوكا لنور الدين يسمى ختلج العلم دار وأولاده.

وفي المرآة: وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر، وجدوا في القتال وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق، ويزحفون اليها ليلا ونهارا، ووجه اليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين خاله، وطلب من العاضد مالا فبعث اليه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الفناء فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيع الآخر، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنازله وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيرا من البلاد، وسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسان والميرة والآلات والسلاح ماأمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائبين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان الى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، واتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يبتسم لتتم السلسلة على ماعرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين ان الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربما لايصدقني فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولاتنصر محمودا، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت الى المسجد، وكان من عادة نور الدين ان ينزل اليه بغلس ولايزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة الا انني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها، والح علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر، والاقتصار على أسد الدين وألزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لايرعبون الا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي لاتحصى ولعمارة اليمني قصيدة منها قوله:

من شاكر والله اعظم شاكر
ما كان من نعمى بني ايوب
طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

مصر بيـــوسفهـــا أضحـــت مشرفـــة
وكـــل أمـــر لها بـــالعـــدل منضبـــط
وحين وافى صـــلاح الـــديـــن أصلحهـــا
فللمصـــالـــح مـــن أيـــامـــه نمـــط(١٢)

ذكر بقية الحوادث:

منهـا أنـه أبطـل الأذان بمصر «حي على خير العمـل» وأمـر صـلاح الدين ان يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهـاب الدين محمـد بن ايلغازي بـن أرتق، صاحـب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهـومائتا فارس الى نور الـدين، وهو بعشترا، فلما وصل الى قلعـة اللبوة من عمل بعلبـك ركب متصيدا، فصـادف ثلاثمائة فارس مـن الافرنج قـد شنوا الاغارة على بـلاد الاسلام فانفصلـوا واقتتلوا فانهزم الفرنج، وأكثـر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلـم يفلت منهم الا من لايعتـد به، وسـار شهاب الـدين بـرؤوس القتلى الى نور الـدين، فـركب نـور الديـن والعسكر للقـائه، وكان في جملـة تلك الـرؤوس رأس مقدم الاسبتار صـاحب حصن الاكراد، وكان من الشجـاعة بمحل كبير، ولانه كـان شجا في حلوق المسلمين، وكـذلك ايضا كـان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.....

ومنها أن في ليلـة عيد الفطر رزق السلطان صـلاح الدين ولـده الملك الافضل نور الـدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلـع واعطى وتصدق بما بهر به العقول.

ومنها أن نجم الديـن أيوب والد صلاح الدين كـان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية، ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاء واكيعقوب والاسباط إذ وردوا
على العزيز من ارض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزغ ولا زلل
وملكوا ملك مصر في شماخته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرآة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الافرنج لما نزلوا على داريا في أيام مجير الدين آبق، فعمر نور الدين ــ في هذه السنة ــ هذا الجامع في وسط القرية.

ذكر الأمور المزعجة:

منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير : وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نـور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمـر ماانهدم من أسوارهـا وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرهـا، فلما وصلها أتاه خبر بـاقي البلاد وبخـراب أسوارها وخلـوها من أهلها، فـرتب ببعلبك مـن يحميها ويعمرهـا وسار إلى حمص ففعـل مثل ذلك، ثـم إلى حماة، ثم الى بـارين، وكان شديد الحذر على البـلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فـانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البته، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مـع أمير كبير، ووكـل بـالعمارة من يحث عليهـا ليـلا ونهارا، ثـم أتـى الى مدينة حلـب، فرأى فيها من آثار الزلـزلة ماليس بغيرها مـن البلاد، فإنها قد أتـت عليها، وكـانوا لايقـدرون يأوون إلى بيـوتهم السالمة مـن الخراب خوفا من الزلـزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمـون بظاهرها من الفـرنج، فلما شـاهد ماصنعـت الزلـزلة بها وبأهلهـا أقام فيهـا وباشر عمارتها بنفسـه، وكان هـو يقـف على استعمال الفعلـة والبنائين، ولم يـزل كذلك حتى أحكـم أسوارها وجميع البلاد وجوامعهـا، وأخرج من الأموال مالايقدر قدره.

وأما بلاد الفـرنج ـ خذلهم اللـه ـ فإنها ايضا فعلـت فيها الزلزلـة قريبا من هـذا، وهم ايضا يخافون نـور الدين على بـلادهم، فاشتغل كـل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكـانت قـلاع الافرنـج المجاورة لبعـرين كحصـن الاكراد وصـافيتا والعـريمة وعـرقة وقـد وافقت الـزلـزلة الفـرنج يـوم عيدهـم في الكنائس، ﴿فخر عليهـم السقف من فوقهـم وأتاهم العذاب مـن حيث لايشعـرون﴾ [النحـل ٢٦]، وذكـر العماد قصيـدة في مـدح نـور الـديـن ووصف الزلزلة:

هـــل لعـــاني الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي

جنبـــوني خطـــب البعـــاد فَسَهْـــل
كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
كنـــت في غفلـــة مـــن البين حتـــى
صـــاح يـــوم الاثيـــل بـــالبين حـــادي
قـــد حللتـــم مـــن مهجتـــي في الســـويـــدا
ومـــــن قلبـــــي محل الســـــواد

إلى أن قال:

أتمنـــى بـــالشـــام أهلي ببغـــداد
وأيـــن الشـــام مـــن بغـــداد
ومـــا اعتيـــاضي عـــن حبهـــم يعلـــم اللـــه
تعـــالى الا بحـــب الجهـــاد
واشتغـــالي بخـــدمـــة الملـــك العـــادل
محمـــود الكـــريـــم الجواد
أنـــامنـــه على سريـــر سروري
راتـــع العيـــش في مـــراد مـــرادي

إلى أن قال:

هـــم نعـــم الملاذ مـــن نـــائب الـــدهـــر
ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـــل رزء الفـــرنـــج فـــاستبـــدلـــوا منـــ
ـــه بلبـــس الحديـــد لبـــس الحداد
فـــرق الـــرعـــب منـــه في أنفـــس الكفـــ
ـــار بين الأرواح والأجســـاد
سطـــوة زلـــزلـــت بسكـــانها الأرض
وهـــدت قـــواعـــد الاطـــواد
أخـــذتهم بـــالحق رجفـــة بـــاس
تـــركتهـــم صرعـــى صروف العـــوادي

خفضت من قلاعها كل عال
وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض
مظهر سر غيبه فهو بادي

وفي المرآة: وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت الى اللاذقية وجبلة، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل أصابه حجر وهو على درج جيرون لان أهلها خرجوا الى الصحراء، ثم امتدت الزلزلة، وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقة وماردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلا...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة:

ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها الى زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوما وأقرها لابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الاخرى، وأمر بعمارة جامعها وتوسعته ووقف على تأسيسه بنفسه وجعل له خطيبا ودرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر البرقاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع قرية من قرى الموصل، وذلك كله باشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاوية يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر عنده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه يستشيره في اموره ومايعتمده من المهمات، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع مافعله من الخيرات، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذه معه الى دمشق، فأقطعه اقطاعا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة في حق العلماء. وخاصة المسلمين، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوي الشتاء فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يوما، فلما كان آخر ليلة أقام بها، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فوره الى السفر، وماأصبح الا وهو سائر الى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان على سنجار ونصيبين والخابور فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا من أصحابه.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة اتصل بنور الدين أن شهاب الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل قد فوض أموره الى فخر الدين عبد المسيح، وأنه استولى وقام بالامر وتحكم، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخر الدين المذكور لما بلغه من خشونة سياسته، وقال: انا أولى بتدبير اولاد أخي، وسار عند انقضاء الغزاة جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك نصيبين، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المناجيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم، فسار الى

الموصل فأتى مدينة بَـلَد، وعبر الدجلة فسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الدين مسعود بن قطب الدين أخاه الى أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وأذربيجان وبلد الجبل وأصفهان والري وتلك الأعمال يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض للموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لاولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم ولايحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا حفظ ماأهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم من بها من الامراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد لنور الدين، فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقر بيد سيف الدين غازي، ويطلب لنفسه الامان، فأجابه الى ذلك وشرط ان يأخذ فخر الدين معه الى الشام، ويعطيه عهده اقطاعا يرضيه، فسلم البلد في جمادى الاولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيها خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بأن لاينفرد عن سيف الدين غازي بقليل من الأمور ولابكثير، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوما، وعاد الى الشام.

وفي تاريخ الدولتين: وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصل، ثم قسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين اولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهويحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قيماز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستناب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمذاني الماراني الكردي الموصلي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبرس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى الساحل غازيا، فمضى واغار على عسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصناع هناك وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

و منها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهدها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للمالكية، وكانت دار العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز، فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها، وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدم اكثره وصار طرقا لايرد داخلا ولاخارجا، وولى أمره لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الاذان «حي على خير العمل» وشرع في تمهيد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومن جملة الحوادث في هذه السنة أن في نصف شعبان هبت ريح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والخليفة بمصر العاضد، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولكنه في الحقيقة سلطانها، وليس لأحد معه كلام لا من أمرائها ولامن أعيانها، والعاضد تحت حكمه وقهره، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه وخطب باسم المستضيء الخليفة، وعقيب ذلك مات العاضد، والكلام فيه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبته من ديار مصر في محرم هذه السنة، وسبب ذلك ان صلاح الدين لما ثبت ملكه في البلاد، وأمن السودان والأجناد، وضعف أمر العاضد، وصار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبته، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك، ولما وصل رسول الخليفة الى نور الدين بذلك سيرنور الدين كتاب الخليفة وكتابه إلى صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأهله والخطبة للامام المستضيء فجمع صلاح الدين الامراء وشاورهم في ذلك، فمنهم من خوفه، ومنهم من هون عليه، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم وصعد المنبر قبل طلوع الخطيب، ودعا للامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة باقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديار المصرية وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاما لافسحة فيه، واتفق ان العاضد مرض، واستشار صلاح الدين الامراء فاختلفوا فيه كما ذكرنا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قال ابن الأثير: وقد رأيناه بالموصل كثيرا، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام قال: انا ابتدىء بها، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد عليه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح

فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على ماتذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام أرسل الى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبي المعالي بن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديدا، وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقال ابن الجوزي: ووصل يوم السبت ثاني عشرين المحرم ابن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقد صنفت في هذا كتابا سميته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمرني بانشاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر
نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا النصرة العضد العا
ضد والقاهر الدين بالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس
فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا المدعي يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبـ
ـة للهاشمي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله
وجلت عن كل عدٍ وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صندل ــ وهومن أكابر الخدم ـ المقتفوي، ومعه التشريف لنور الدين والكتاب للعماد ليقرأه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»(١٣)أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان، اشارة الى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقا زنته ألف دينار، وبعث أيضاً الى صلاح الدين تشريفا أقل من تشريف نور الدين، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف، فركب به في الديار المصرية، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها، وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى الى الميدان الاخضر، ثم عاد.

الثاني: في كتاب صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بخط القاضي الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا من رب رحيم﴾[ياسين ٥٨] ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ [التوبة ٢١] وصلوات الله التي تنزل بها الروح الأمين وتشيعها الملائكة بالتأمين على مولى الأمة ومولى النعمة، ووالي الامر المصون بقاؤه في عقبه، وولي الله الذي ﴿لاخوف عليهم﴾ [البقرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفة على الحقيقة، والامام الذي يحمي من دون الله الحقيقة على الحقيقة، ووارث السقايتين: زمزم والكوثر، والولايتين: السرير والمنبر، والدعائين: اليوم وفي المحشر، والشرفين: المشعر والمعشر، والطرفين: المشهد الاول والمشهد الاكبر، والمقامين: مقام ابراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلم أبدا سرمدا، والشعارين: الابيض في القلب والاسود في اليد، والخلدين: في دار السلام ودار السلامة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقامة، والشفاعتين: سالفا في أهل العمار، وآنفا في أهل النار، والسلامين: سلام لكم من ألسنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد ٢٤] على الخليفة ابن الخلائف، على رغم من رضي أن يكون مع الخوالف، وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومولانا الامام المستضيء بالله أمير المؤمنين، صلوات الله على تلك الأنوار القدسية يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية، والحمد لله الذي وفى الدين دينه المسؤول، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقا كان به ممطولا، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطلولا، وكتاب المملوك صادر الى المقر الأشرف الأصيل، من شرفه لشرف الرسول رسيل، والاسم الشريف المستضيء به قد صدحت منابره وعروشه، وطرزت المدائن والملابس والدنانير

والدراهم رقومه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايثار الضرب لاايثار الرجوم، ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ماأجمله، وتحصيل مامنعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله، راجيا ان يناله من الملاحظات النبوية مايجعل له سلطانا، ويمكن في قلوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافة من لايعنيه الا إياها، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضاياها، ويستضيف لها نصرا الى نصر، ويستنجز لها ماكتب ﴿في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء ١٠٥]، نوه الله باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبق بدعوته المعمورة حتى لايستثنى مكان بألا، وقلص به الامة ضلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى.....»

وفي أيام العاضد وصل اسطول الفرنج الى الاسكندرية، وكان معهم من الخيل الف وخمسمائة فرس، وفي الاسطول ثلاثون ألف مقاتل في مائتي شيني، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجال والغلمان تتمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عن البر، وطلعوا فضربوا خيامهم وكانت ثلاثمائة خيمة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنج على غفلة فأفنوهم قتلا وأسراً، وغنموا جميع ماأحضروه، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قال ابن كثير رحمه الله : لما مات العاضد، استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردها لهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنية عوضا عما فاتهم من

الخلافة، واستعرض حواصل القصرين، فوجد فيهما من الحواصل والامتعة والآلات والثياب والملابس شيئا كثيرا باهرا، وأمرا هائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر وقضيب زمرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحو الابهام، وجبل من ياقوت، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، وطبل للقولنج، فاتفق أن بعض أمراء الاكراد اخذه في يده، ولم يدر ماشأنه، فلما ضرب عليه حبق فألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوت والذهب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيع فيما كان هنالك من الاثاث والامتعة نحوا من عشر سنين، وأرسل الى الخليفة ببغداد هدايا عظيمة سنية، وكذلك الى الملك العادل نور الدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واجد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونهما، مع لآلىء كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجد في القصر أيضاً خزانة كتب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو الفي ألف مجلد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري(١٤).

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين الف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي بين الامراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر عظيم على الخليج، الذي يقال له اللؤلؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الامراء في دور من كان ينتمي الى الفاطميين، وصار لايلقى أحد من الاتراك أحد من أولئك الذين كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شدر مذر، وصاروا أيادي سبأ.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهل العاضد في موضع خارج القصر، وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حرا، وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئا كثيرا، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوب وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ماباعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان، بعد القبض على القصر وأخذ مافيه، وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ماشاهدته من أمر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوما

وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية مثل أقبيتكم وقلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ماهذا الزي، الذي مارأيناه قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تاريخ الدولتين: أخبرني أبو الفتوح أن السلطان جعل أهل العاضد في دار برجوان، في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وأبعدوا عنها.

التاسع: في ذكر كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الائمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا، والخلافة إذا ذكرها أهل الخلاف لم يخروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الاقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مختنق، وقطع دابرهم، ووعظ آتيهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس

السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير اليهم بنائم، ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ مااقترح، ويقدم حقه ولايطرح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة، وتواصل إليه امداد التقدمات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من عروة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لايصال ملطفاته، وتنجز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الاعظم، املا انه يعود اليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه.....»

ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نور الدين استدعى ابن أخيه صاحب الموصل، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقه فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرقة ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها واحتوى على مافيها كلها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

وقال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الافرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ماأخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولميرتها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فانحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الاشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين، فهو كان الآمر، وذاك المباشر.

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجتمعا هناك على المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ماحصل له من التمكين، ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كرّ راجعا معتلا بقلة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ماأقول لك، والله ما هاهنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أمالك عقل، تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، ويقول ابن أخيك مثل هذا الكلام، وتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك، ولكن ابعث إليه وترفق له، وتواضع له، وقل: أي حاجة إلى مجيء مولانا، ابعث الي بنجاب أجيء معه الى بين يديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقال العماد: وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن يجتمعا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيبرس: تجهز صلاح الدين من مصر الى الكرك، وكان قد قدر مع نور الدين ان يخرج من دمشق ويجتمعا على غزو الافرنج، فسبق صلاح الدين، وخرج نور الدين من دمشق، فأوجس صلاح الدين في نفسه خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره، فرجع عائدا وقد بقي بينه وبين الكرك مسافة قريبة، وأرسل الى نور الدين رسولا وأصحبه هدايا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتب اليه يعتذر بأن والده ضعيف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين: حفظ مصر عندنا أهم من غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين وأشار عليه بأن يرسل رسولا الى نور الدين يستعطفه، فأرسل إليه بذلك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ماقال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تندرج، والله كل وقت في شان، وكان الامر كما قال، توفي نور

الديـن، ولم يقصد صـلاح الديـن، ولا أزاله، وكـان هذا الـرأي من نجـم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات نور الدين:

منها: ان نوز الـدين برز الى الافرنج وكـانوا قد اجتمعوا بـالشام لقصد مدينة زرا، فـوصلوا الى سمكين، فهربوا مـن نور الدين الى الغـور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الديـن سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائبين.

ومنها: أن نور الـدين فتح في هذه السنة مرعـش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الـروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصـد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقريـة تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نـازل بالكسـوة إليهم، فلما عرفـوا وصولـه رحلوا إلى الفـوار، ثم إلى السواد، ثم نزلـوا بالشلالة، ونزل نور الديـن عشترا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوهـا، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخـاضة، فوقف الشجعان حتـى عبرت السرية، ورحل نور الـدين من عشترا فنزل بظـاهر زرا.

قال العماد: وكنـت راكباً في لقائهم مـع الملك العادل، وهـو يقول لي: كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

عقـــــدت بنصرك رايـــــة الايمان
وبـــدت لعصرك آيـــة الفـــرســـان
يـــاغـــالــب الغلـب الملـوك وصـائد الـــ
ـــصيد الليــوث وفــارس الفـــرســـان
يـــاســـالــب التيجـــان مـــن أربـــابها
حـــزت الفخـــار على ذوي التيجـــان
محمـــودا المحمـــود مـــا بين الـــورى
في كـــل اقليـــم بكـــل لســـان
يـــا واحـــدا في الفضـــل غير مشـــارك
اقسمـــت مـــالـــك في البسيطـــة مـــن ثـــان

ومنها:
وجلـــوت نـــور الـــديـــن ظلمـــة ظلمهـــم
لما أتيـــت بـــواضـــح البرهـــان
وهـــزمتهـــم بـــالـــرأي قبـــل لقـــائهـــم
والـــرأي قبـــل شجـــاعـــة الشجعـــان
أصبحـــت لـــلاســـلام ركنـــا ثـــابتـــا
والكفـــر منـــك مضعضـــع الاركـــان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نـور الدين سار قـاصدا جـانب الشمال، فسـار إلى بعلبك، ومنها الى حمص، ثـم حلب، وفعـل في كل منهـا من المصـالح مـاوجب، وقصـد بـلاد قليـج أرسـلان ملك الـروم، وكـان العماد معـه، ووصـل الى مرعش، وكان الزمان في أطيب فصـوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد الى صديق له بدمشق:

كتـــابي فـــديتـــك مـــن مـــرعـــش
وخـــوف نـــوائبهـــا مـــرعشي

ومـــا مـــرّ في طـــرفهـــا مبصر
صحيـــح النـــواظـــر الا غشي
ومـــا حـــل في ارضهـــا آمـــن
مـــن الضر والضيـــم الا خشي
تـــرنحنـــي نشـــوات الغـــرام
كـــأننـــي مـــن كـــاســه منتشي
اسر وأعلـــن بـــرح الجوى
فقلبـــي يسر ودمعـــي يشي
بـــذلـــت لكـــم مهجتـــي رشـــوة
فحـــاكـــم حبكـــم مـــرتشي
وكيـــف يجد الكـــرى مغـــرم
بنـــار الغـــرام حشـــاه حشي
بمـــرعـــش أبغـــي وبلـــوطهـــا
مضـــاهـــاة جلـــق والمشمـــش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور الدين، فاستنشدنيها فأنشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار وزدتها بيتين بدهتهما في الحال:

وبـــا لملـــك العـــادل استـــأنســـت
نجـــاحـــا منـــي كـــل مستـــوحـــش
ومـــا في الانـــام كـــريـــم ســـواه
فـــإن كنـــت تنكـــر ذا ففتـــش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طريدا، فسار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئا إلى ظله، فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له مايليق أن يحمل للملوك، ووعده النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفع إليه في اعادة ماغلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسوم وبهسنا ومرعش، ومرزبان فملكها ومابينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها، خوفا وفرقا، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فأجابه الى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين: إنني اريد منك أمورا وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولي، حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لاأعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك الى الغزاة تسيره، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فاما ان تكون تنجدني بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج، واما ان تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث ان تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر امورا غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ماقصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته الى ماطلب، أنا أجدد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح، وعاد نور الدين، ونزل عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها الى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج ارسلان وملكها.

ومنها أن مليح بن لاون، مقدم بلاد الارمن التجأ إلى نور الدين، وتقوى به على الروم والارمن، وكانت الدروب تحت اذنة والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح

ابـن لاون فكسرهم وقتـل وأسر، وسـاق لنـور الديـن مـن مقـدمي الـروم ثلاثين أسيرا، فـأرسل نـور الديـن القاضي كمال الـدين بـن الشهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفـة المستضيء بأمر الله، ومعـه كتاب يشرح هذه الكسره، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهـاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعـه توقيع لنور الديـن بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنـانير النثار التي نثرت يـوم دخل الشهـاب الى بغداد بالبشـارة بالخطبـة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكـانت نـاحيتا درب هـارون وصريفين من أعمال العـراق لزنكـي والد نـور الدين قـديما من انعام أمير المؤمنين، فسـأل نور الـدين احياء ذلـك الرسـم في حقه، فـأنعم بهما الخليفـة عليه، ووجـه بهما، وكان مراده رحمه الله ان يستـوهب ببغداد على شاطىء دجلة ارضـا يبني عليها مدرسـة للشافعية، ويقف عليهـا الناحيتين، فعاقـه امر القدر عن قـدرته على الأمر.

ومنها ان نـور الديـن أرسل الى صـلاح الديـن الموفق خـالد القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلـك لانه استقل الهدية التي ارسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقـرر له على الديار المصرية خراج يحمل اليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صـلاح الديـن بعث الى نور الـدين هـدية منهـا: فيل وحمارة عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخـرج الناس للقائها، وعجبوا من خلقة الحمارة.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بمال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثم عاد صلاح الدين الى مصر، وعاد نور الدين من الموصل وقطع الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو أبو الشكر أيوب بن شادي، والد الملوك بني أيوب، الكردي الزرزاني، وهم خيار الأكراد من بلاد دوين، بشمال بلاد أذربيجان، مما يلي الكرج، ومنهم من يقول: أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب، وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر بني أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لايعرف بعد شادي أحد في نسبهم، والذي نسب الى بني أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي، ويعرف بابن سيف الاسلام، وقد ملك اليمن بعد أبيه فتعاظم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب بالامام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه، وهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنا الهادي الخليفة والذي
أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولابد من بغداد أطوي ربوعها
وأنشرها انشر السماسرة البرد
وأنصب أعلامي على شرفاتها
وأحيي بها ماكان أسسه جدي
ويخطب لي فيها على كل منبر
وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهـذا الادعـاء ليس بصحيـح، ولا لـه أصـل يعتمد عليـه ولامستنـد يستند إليه.

قـال ابن أبي طـي: لايعـرف في نسـب نجم الـديـن أكثـر من والـده شادي، وحدثنـي أبي قال: كان تقي الديـن عمر يزيد فيقـول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعـة من آل أيوب ان دعـوى ابن سيـف الاسلام أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي آخـر خلفاء بني أمية كـذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظـاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتـاب وقف رباط النجمي بـدمشق ولم يزد فيـه على نجم الـدين أبي سعيـد أيـوب بن شـادي العـادلي، والمقصود أن الأمير نجـم الديـن والأمير أسد الدين شيركـوه كانا أخويـن، وكان نجم الديـن أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تـاريخه الكبير: كان مولد نجم الديـن أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيـان ابتداء أمـره وانتسابـه واتصالـه بالـدولة، وهـو أن أباه شادي كان من أعيـان أهل دوين وكان له صاحب يقـال له جمال الدولة مجاهد الـدين بهروز، وكـان من أظـرف الناس وألطفهـم، وكان بينـه وبين شادي أخـوة أكيدة، فجـرت لبهروز قضية في دويـن، فخرج منهـا حياء، وذلك انـه اتهم بزوجة بعـض الأمراء بدوين، فـأخذه صاحبهـا فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الاقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل بالـلالا الذي لاولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوما مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه فلعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهماته، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوما امرأة تبكي، فقال لها: مايبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهسلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهسلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لابيكما علي حق، وبيني وبينه مودة متأكدة مايمكنني ان اكافيكما بسيئة، ولكني اشتهي ان تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي وتطلبا رزقكما، فلما وقفا عليه خرجا ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعهما اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك ـ كما ذكرنا ـ استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لايقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه الى الديار المصرية ثلاث مرات - كما ذكرناه - وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه - كما ذكرناه مفصلا - طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته - كما ذكرنا.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليمني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم تغن بطبيب
عجبا لمعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب
ردالاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب
جاءته أخوته ووالده الى
مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريخ الدولتين: وكان بهروز المذكور، أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود طمع في أخذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا الساقي وهو أتابك السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، فانهزم زنكي، وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ماكان معه في عسكره، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات، وعلم مكانه الامير نجم الدين وأخوه شيركوه، فأحسنا إليه وداويا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر، حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من أمتعته، فكان زنكي يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعا باسلا ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها، فاتفق ان اسد الدين شيركوه نزل يوما لبعض شأنه، ثم عاد الى القلعة، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلا نصرانيا، فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد الى القلعة، وكان مهيبا، فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأخذ النصراني برجله فألقاه من القلعة، وبلغ ذلك الى بهروز وحصل عنده من خوّفه جرأة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الـدين قد استحوذ على قلوب الـرعايا، وأنه ربما كـان منه أمر تخشى عـاقبته، ويصعـب استدراكه، فكتـب إلى نجم الـدين ينكـر عليه ماجرى مـن أخيه، ويأمره بتسليم القلعة الى نـائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطـاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها مـن أهل ومال، واجتمـع هو وأخـوه أسد الديـن وصمما على قصد عماد الدين زنكي بـالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكـرنا، وقيل ان أسد الديـن خرج إلى الموصل قبل نجـم الدين، ثـم إنه جرى بين أسد الـدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتـى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاتـه، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجـم الدين حتى قـربهما من قلب أتـابك، وجعلهما عنده بالمنـزلة العظيمـة، وخـرجا معـه إلى الشـام، وشهـدا معـه حروب الكفـار وقتـال الافـرنج لعنهـم الله، وكـان لاسد الـدين في تلـك الوقـائع اليد البيضـاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الديـن سنقر غلام نجم الـدين أبي طالب، وكـان في خدمة نجم الـدين أيوب، قال: لما دخـل نجم الدين أيـوب الديار المصرية الى ولـده صلاح الدين كنت معـه في خدمته، وكانا قد اجتمعـا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بـأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الـدين، فقبل الارض بين يديهما وقال لنجم الديـن: يامولانا هذا تأويـل مقالتي لك حين ولد هـذا السلطان ـ يعني صـلاح الدين ـ فضحك نجم الدين وقال: صدقـت والله، ثم التفت الى الجماعة الذين حـوله مـن أكابـر العلماء والقضـاة والامراء، وقـال: لكلام هـذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هـذا الولد ـ يعني السلطان صلاح الدين ـ أمرني صاحب قلعة تكريـت بالرحلة عنها بسبـب أخي شيركوه مـن قتلـه ذلـك النصراني، وكنـت قـد ألفـت هـذه القلعـة وصـارت لي كـالوطـن، فثقل علي الخروج منهـاجـدا، وفي ذلك الـوقت جـاءني البشير

بولادة هذا ـ يعني صلاح الدين ـ فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، وخرجنا من القلعة وانا لاسميته ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي كاتبا لي، فلما رأى مانزل بي قال: يامولاي أي شيء لهذا المولود من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لايضر ولاينفع، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى، فما يدريك أن هذا الطفل يكون سببا لوصول الخيرات إليك ويكون هو ملكا عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد جرى ماقال لي، فتعجب الحاضرون من ذلك، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه، ولعمارة اليمني في نجم الدين مدائح ومراثي منها:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجا ومعتمرا
كأنما حل فيه الحل والحرم

إلى ان قال:

والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم تكشف لها غمم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعا باسلاً أميناً، خيرا محسنا، ناصحا عظيما في أنفس الناس بالخير والدين وحسن السياسة، وكان لايأتي أحد من أهل العلم والدين من مدينة الا انفذ إليه، وقد ذكره العماد الكاتب وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكان نجم الدين رجلا مباركا كثير الصلاح مائلا

للخير، حسن النية، جميل الطوية، وظهرت ثمرة بركته في أولاده، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبك بناها حين كان نائبا بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرآة: وكان نجم الدين رجلا عاقلا حازما شجاعا حليما رحيما، جوادا، عاطفا على الفقراء والمساكين، محبا للصالحين، قليل الكلام جدا، لايتكلم الا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين ان يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالاكرة دائما.

وقال القاضي ابن شداد: وكان شديد الركض بالخيل، يلعب بالاكرة، ومن يراه يقول: مايموت الا من وقوعه من ظهر الفرس.

الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوما من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة، وحمل إلى داره، وبقي متألما إلى أن توفي يوم الاربعاء سابع عشرين الشهر المذكور، ويقال في الثامن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبرس: وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان ولده صلاح الدين غائبا عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتخطفته يد الردى في غيبتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة يخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين ، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليمني يرثيه:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الدهر لا يبقي ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآثار والنذر
كم شامخ العز ذاق الموت من يدها
ما أضعف القدر ان ألوى القدر
أودى علي وعثمان مخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسي في مصيبته
فللورى في رسول الله معتبر
لا قدست ليلة كادت مصيبتها
الأكباد حزنا على أيوب تنفطر
كأنما صور الله الكمال به
شخصا ويوسف منه السمع والبصر
إذا الليالي تجافت عن حشاشته
فالجرح مندمل والذنب مغتفر
يا ناصر الحق والايام خاذلة
إن الغريب بغير الدمع ينتصر
ما مات أيوب الا بعد معجزة
في الحق لم يؤتها من جنسه بشر
مضى حميدا من الدنيا وليس له
في رتبة ارب منها ولا وطر
صلى الاله على نجم اضاء لنا
من نسله النيران والشمس والقمر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته واولها هو قوله:

هي الصدمة الاولى فمن بان صبره
على هول ملقاها يضاعف أجره
أذم صباح الاربعاء فإنه
تبسم عن ثغر المنية فجره

أصـــاب الهدى في نجمـــه بمصيبـــة
تـــداعـــى سماك الجو منهـــا ونسره
فـلا تعـذلـونا واعـذرونـا فمـن بكـى
على فقـــد أيـــوب فقـــد بـــان عـــذره
أقـــام بـــأعمال الفـــرات وخيلـــه
يـــراع بها نيـــل العـــزيـــز ومصره
إلى ان رمـــاهـــا مـــن أخيـــه بضيعـــم
فـــرى نـــابـــه أهـــل الصليـــب وظفـــره
تعـــاقبتها مصرا تعـــاقـــب وابـــل
يبيـــت بقطـــر النيـــل ينهـــل قطـــره
ووا خيتـــــه في البر حيـــــا وميتـــــا
فقبرك في دار القـــــــــرار وقبره
وقـــد شخصـــت أهـــل البقيـــع اليكما
والا فسكـــــان الحجـــون وحجـــره
هنيئـــا الملـــك مـــات والعـــز عـــزه
وقـــدرتـــه فـــوق الـــرجـــال وقـــدره
وأدرك مـــن طـــول الحيـــاة مـــراده
ومـــا طـــال الا في رضـــى اللـــه عمـــره
وأسعـــد خلـــق اللـــه مـــن مـــات بعـــدما
رأى في بنـــي أبنـــائه مـــا يسره
رعـــى اللـــه نجما تعـــرف الشمـــس أنـــه
أبـــوهـــا ونـــور البـــدر منهـــا وزهـــره
وأبقـــى المقـــام النـــاصري فـــانـــه
لـــدولتكـــم كنـــز الـــرجـــاء وذخـــره

....